

٢ — نموذج من تراجم القراء

الحافظ عثمان الموصلي

Mollah Othmân le Mausilite.

يمر الناظر في كتب التاريخ وسير النواذب على غرائب وعجائب من الأنباء والحكايات وال نوادر : يقف العقل دونها مبهوتا . ويردد في قبولها ورفضها متحيرا ، بل يكاد يجزم بوضعها ويمتد بطلانها اعتقادا لا مجال للامتراء فيه لو لم تتواتر وينقلها الأثبات : ثم تؤيدها آثارهم ونتائج قرائعهم ؛ ويشاهد انلسا من نوعهم جمع الله العالم كله فيهم . كأنهم خلقوا ليكونوا تذكرة لمن مضى وحجة على من جعد الآيات .

ومن شاهد الحافظ عثمان الموصلي آمن قلبه بتلك الأنباء ايمان شمر امية ابن ابي الصلت بالله رب العالمين . واذعن لسكل ما يرويه المؤرخون من الأنباء الغريبة في سير العالمين .

ولد الحافظ عثمان في الموصل سنة ١٢٧١ هـ في حجر ابيه الحاج عبدالله بن الحاج فتحي بن عليوي المنسوب الى بيت الطلعان . وفقد بصرا صغيرا . وتوفي ابوا وهو في نحو السابعة من عمرا ، فبقي يتيمًا ؛ فرآه السري الفاضل محمود افندي العمري ، وتفرس ان يكون اهلا للتربية والثقيف ؛ فأخذة الى بيته وخصص له من يحفظه القرآن الكريم فحفظه حفظا متقنا وحفظ السيرة النبوية وطرفا من الأحاديث الصحيحة وجانب كبير من الشعر . ثم رتب له من يدرسه على اللحن والإيقاع ويعلمه الموسيقى حيث انه رزق صوتا معبديا ينش الآرواح ، من كبوات الأنواع . وجرسا غريزيا يخرس الأطياف في اعالي الأشجار — فلم يزل يعاني الصنعة حتى جاءت منه آية نسخت آية ابراهيم بن ميمون الموصلي فخلق طائر صيته في سماء العراق ، واصبح حديث المحافل والنوادي في الاصقاع والأفاق . فلما توفي مريه العمري قصد بغداد :

وقبل كانت له بغداد عاشقة تقضي بذكر الاوقانا وازمانا

على السماع به باتت ، تيممت «والأذن تشق قبل العين احيانا»

وكان اذذاك فيها ابنه الشاعر الاديب احمد عزت باشا العمري فعل ضيفا في بيته فالتف حوله الاكابر وحفت به عيون الاعيان ؛ واصبح في مغاني الزوراء فاكهة الاديباء ؛ ونقل الظرفاء ؛ وشمامة النبلاء ؛ تنهادالا الاكف من مجلس الى مجلس ومن ناد الى ناد والناس يخفون اليه سراعا من كل حذب لسماع قراءته (المولد النبوي) يحيون الليلة بعد الليلة مفضلين التلذذ بانغامه على لذة المنام . ولا ريب ان البغداديين من ارق الناس طباعا واشدها اهتزازا للاصوات الرقيقة والالخان الشجية كما هو مشهور في التاريخ ومشاهد اليوم ؛ فلا بدع اذا ما تمشقوا صوت الشيخ عثمان ولازموا مجالسه ملازمة الظل امحابه .

وبعد ان قضى زمنا في بغداد عزم على السياحة في العالم الاسلامي فشد الرحال الى الحجاز لاداء فريضة الحج المقدسة . وذكر لي بعض الفضلاء انه رأى في رحلته لكاتب تركي انه كان في مكة يخطب في المحافل ويدعو الحجاج الى الانقياد للعثمانيين وشد ازر الخلافة ؛ فسألته عن اسم الرحلة وصاحبها لاتيحق جلية الامر فلم يكده يتذكر . فاذا صح هذا فذهابه الى الحجاز كان سياسيا بايعاز من الحكومة .

ثم قفل الى الموصل ؛ وقرأ القراءات السبع على الشيخ محمد ابن الحاج حسن ثم قصد القسطنطينية وسلك لامر من الامور في الطريقة القادرية والمواوية . وحصل على مقام كبير .

ثم سافر الى سورية ومنها الى مصر للاجتماع بعقبتها الطائفة الصييت عبدا الحمولي فلزمه واستفاد من طريقته الحديثة التي وفق فيها بين المزاين المزاج العربي والمزاج التركي ؛ وقد رأيت كثير الاعجاب به حتى اذا ذكره زفروكي عليه . وقد اخذ في مصر القراءات العشر عن كبار القراء واساتذة التجويد كما اعجب به المصريون وتلمذ عليه كثيرون في الموسيقى التركي ؛ كما جاء في كتاب الموسيقى الشرفي لمحمد كامل الحلبي (١) وغيره . واصدر فيها مجلة لم تمتد حياتها حيث اوفده السلطان عبد الحميد الى طرابلس الغرب لعجم عود الامام السنوسي وسير اغوار مقاصد السياسة فاحس السنوسي بالغرض من مجيئه

الشيخ عثمان فاكرم مثاول واحسن اليه ثم جهزه فعاد ادراجه الى الاستانة ثم الى بغداد فاتفق ان دعا على رؤوس الاشهاد في جمع كثيف لسلطان المعجم فنفاه تقي الدين باشا والي بغداد الى سيواس . وبعد منفاه ذهب الى الاستانة فعين استاذاً للموسيقى في احدى مدارسها . وتزوج فيها . وبقي فيها زمناً طويلاً في نعيم مقيم واجلال وتعظيم الى قبيل الحرب الكبرى فبعثه الحنين الى سكنى العراق فجاء دار السلام ونزل ضيفاً في (بيت خيوكة) امام دارنا القديمة في الرصافة ففرغت اليه الناس وتجاذبه ايدي الكبراء وامسى عند كل ذي عين ، جلدة ما بين الانف والعين . وعاد الناس الى سيرتهم الاولى معه من احياء الليالي بقرأة (المولد النبوي) ونصب في آخرته شيخاً للقراء ؛ وقرأت عليه (١) قبل نصبه سورة لقمان على السبع . وفي جمعت مدينة السلام بوفاته في اليوم الخامس عشر من جمادى الآخرة سنة ١٣٤١هـ وكان يوماً شديداً المطر كثير الرعد والبرق فلم يسمع كثير من الناس بجموته إلا بعد دفنه رحمه الله .

كان عثمان آية الزمان

كان هذا الرجل آية الزمان في سعة ادبه وعلمه وفرد ذكائه وفطنته ورقة شعوره واحساسه . وبراعته في فن الموسيقى وتفنته في قراءة القرآن المجيد .

كان اذا قرأ القرآن تخيلت « ايها » يترنم بصوته الرخيم . يقرأ القراءات العشر بتفريع (١) وتنقل يدهش السامعين فكان بعض الناس يتوهمون انه غلط او حرف فيردون عليه فيصرخ : « اسكت ! ليس بشغاك ! » . وبما كان يزيد حسن صوته الرخيم الذي يملأ النفوس ويستفز الشعور تجويداً للقراءة واداءة المعاني حقها كأن يهول حيث يجب التهويل ؛ ويتلطف حيث يجب التلطف . ونحو ذلك مما لا يعقل إلا العالمون بمعاني التنزيل ومواقع الكلام

اما (المولد النبوي) فبعد ان كان القراءة او قل « المغنون » خاملين في الصنعة لا يعرفون سوى الاسترسال في نغمة واحدة من البداية الى النهاية حتى تكاد تهزق من سماعهم الارواح . وبعد ان بار سوق الفناء في دار السلام ولم

(١) في أوائل عام ١٣٣٨ هـ

(٢) التفريع هو ان يخرج القارئ او المترنم من نوع الى نوع ويعود اليه .

تبق له أقل قيمة واعتبار عند الناس — أصبح بما وصل إليه الشيخ من
الابتداع والاختراع الذي لم يعرفه العراقيون من قبل ، من ضروريات الحياة في
نظر الناس . فما كانوا يسمعون به يقرأ في بيت إلا وانسلوا إليه من كل حذب
وضيق المكان بالشيب والشبان فكان (كما قال سيد الشعر آء احمد شوقي المصري
في مثنى) :

يخرج المالكين من حشمة المدا	لك ونسي الوقور ذكر وقار
رب ليل اغار فيه القماري	وآثار الحسان من اقمصار
بصبا يذكر الرياض صبا	وحجاز ارق من اسحار
وغناء يدار لحنا فلحنا	كحديث التديم او كمقار
وانين لو انه من مشوق	عرف السامعون موضع نار
يتنى اخو الهوى منها آها	حين يلحى تكون من اعدار
زفرات صكأنها بث قيس	في معاني الهوى وفي اخبار
لا يجاريه في تفننه المو	د ولا يشتكي اذا لم يجار
يسمع الليل منه في الفجر يال	ل ! فيصني مستهلا في فرار

ذكاؤه وفطنته

واما ذكاؤه وفطنته فحدث عن البحر ولا حرج . وكأني بمن لم يره
يتردد في تصديق ما اذكره من غرائب ونوادير : كان مع شيخوخته اذا سمع
صوت انسان عرف او صافه من حسن ودلالة وطول وقصر وعرف كم سنه .
واذا لمس يد وجل فارقه مدة من الزمن عرفه في الحال . واغرب من هذا وذاك
انه كان يعرف الرجل من قرع نعليه .

وكان يجيد الضرب ايما اجادة على العود والعزف بالآلات الطرب بانواعها
واللعب بالدمه (اي بالذامة) والشطرنج وسائر الألعاب العجيبة . ومريوما في طريق من
طرق بغداد فسمع من أحد البيوت صوت عود غير منتظم فمرف حالا ان وترا
من اوتار لم يحكم شده فوقف وطرق الباب وقال : يا ضارب العود احصك
الوتر القلاني وضما باسمه ! فقال الرجل : انا اردت ذلك بآرك الله فيك !
ونوادير او منع من ان يحيط بها تطلق الحصر .

وأما حافظته فقد كان امرء فيها عجبا . حفظ ما شاء الله ان يحفظ من الشعر والقصص والنوادر ، واستظهر في بغداد صحيح الامام البخاري برمته . وذكر لي شيخنا علامة العراق الامام السيد محمود شكري الالوسي رحمه الله انه حاول ان يأخذ عنه العريضة . قال : فاشترطت عليه حفظ كل ما القيده عليه وادرسه ايلا عن ظهر غيب ؛ فتبسم وقال : شرط عظيم ! قال الاستاذ : فكان لا يمر على الدرس مرة واحدة إلا ويحفظه بلفظه من غير ان ينقص منه او يزيد عليه ... ولقد رأيت يرتجل في المجالس الشعر ولا سيما (التواريخ) ارتجالا فيأتي سهلا لا كلفة فيه ولا يكاد يخطئ في التاريخ .

اخلاقه

كان رحمه الله طيب الحديث لسانا فصيحاً لا يملأ المجلس حلو العشرة وربما كانت تعزيبه الحدة في بعض الاحايين فيتكلم بما يضعك الشكلى وينهب بشقل الحبل . ولكن الغالب على طباعه سلامة الصدر وطيب السريرة وكثرة الوفاء والسخاء وعزة النفس والاباء الى غير ذلك من الصفات الحميدة التي حرمها اكثر العمي .

وكان صادقا في لهجته غيورا على مصالح امته . ومواقفه الوطنية في الثورة العراقية اشهر من ان تذكر فقد كان الناس بحجة قراءة (المولد النبوي) يعمون الليالي في المظاهرة على الحكومة المحتلة ويتناشدون الاشعار الحماسية ويلقون الخطب الوطنية كأنها الشرر . فيأتون بالشيخ عثمان رئيس القراء فيفرغ المنبر ويأخذ في ارتجال الشعر والخطب المحرضة حتى يترك الناس على اشد من الجمر ويدعهم يتلثمون للطعن والضرب في ساحة الوغى !

لبسه وخلقه

كان يلبس سروالا وحية ويرأسه طربوشا اصفر طويلا كأنه تلسن المولوية في فروق والشام ثم استبدل منه قبل وفاته بثلاث سنوات «الكشيدة» وهي عمامة فيها وشي .

وكان قوي النية كبير الجسم معتلن ريع القامة اسمر اللون اشقر الشعر جهر الصوت بطي السير بقوة احد تلاميذه غالبا وكثير من الناس . واذا

ترك وحده سرقوا كيسه اوسبخته او عصاه او حذاءه ، فتشور ثأثرته ويخرج به الامر الى سب نفسه والعريضة على الله! ثم يثوب اليه رشدا فيستغفر ويتوب !

تاليفه

خدم رحمه الله العلم والادب خدمة جليلة بنشر بعض آثار كبار العلماء والادباء فنشر ديوان (١) عبد الباقي العمري الشاعر الشهير . وكتاب الطراز المذهب (٢) . وكتاب الاجوبة المراقية عن الاسئلة الايرانية (٣) : وكلاهما من تأليف شيخ مشايخنا الامام المفسر الخطير ابي الثناء شهاب الدين محمود الالوسي . ونشر كتاب التوجع الاكبر بحذوة الازهر . وخواتم الحكم في التصوف ولم اطلع عليهما .

ولم شمر كثير من جملته تخميس بائية عبد الباقي العمري في رثاء الحسين رضي الله عنه ، وتخميس لامية البوصيري المفتوحة وتخميس قصيدة الشيخ مصطفى البكري ، وتشطير قصيدة لابن المقري الشهير يزعمون انها تقرأ على عشرة ملايين من الالوجه!! وقد ذكرها الخزرجي في طبقاته وشرحها في مجلد لطيف . وقد جمع كل ذلك بمجموعة في ٥٠ صفحة دعاها « الابكار الحسان في مدح سيد الاكوان » وطبعت خمس مرات .

وانشأ في مصر مجلة باسم (المعارف) . قالت فيها مجلة (البيان) للشبيخ ابراهيم اليازجي : المعارف — ورد علينا العدد الاول من مجلة معنونة بهذا الاسم لصاحبها ومحورها الفاضل منلا عثمان افندي الموصلی وهي علمية سياسية تاريخية ادبية اخبارية . وفيما نعهدها في حضرة محررها المشار اليه من غزارة الادب والبراعة في صناعة الانشاء ما يضمن لها التقدم بين الصحف العربية .

محمد بهجة الاثري



(١) طبعه بمصر سنة ١٣١٦ هـ

(٢) طبعه بمطبعة جريدة الفلاح بمصر

(٣) طبعه في مطبعة مكتب الصنائع في لاهوت سنة ١٣٠٧ هـ